الإنسان في التوراة والإنجيل
دراسة من منظور نوري

أ. د. عبد العزيز شهبرΨ

قال الأستاذ سعيد النُوْرْسي رحمه الله :
" إن الإنسان ثمرة شجرة الخلقة ، والثمرة أكمل الأجزاء وأبعدها عن الجرثوم، وأجمعها لخصائص الكل... وهي التي من شأنها أن تبقى وتُستبقى..."
(المثنوي العربي)

إلى هذه الثمرة التي تعتبر جوهر هذا العالم ولبه وجه الأستاذ سعيد النُوْرْسي رسائل النور.

إلى هذا المخلوق الفاني الذي أنعم عليه الخالق الباقي بإمكانات تحقيق الكمالات، توجهت رسائل النور مُنوعَةً آليات الخطاب، تستهدفه كفرد أُلزم طائره في عُنقه وحُمل الأمانة فحق عليه أن يرعاها حق رعايتها كما تتوجه إليه ضمن النوع الذي ينتمي إليه والفصيل الذي يندرج تحت لوائه. إن غاية رسائل النور تبليغ حقائق الإيمان لهذا الكائن الذي يسمو ليتحمل أمانة الخلافة، ويَصغُر ليكون من أضعف المخلوقات وأحوجهم إلى يد تدفع عنه تسلط أصغر المخلوقات ممن يفوق وزنه وزنها ملايين المرات.

Ψ من مواليد مدينة العرائس – المغرب. أكمل دراسته بجامعة غرناطة قسم الدراسات السامية ودرس بجامعة الكومبلوطنسي قسم الدراسات العبرانية والآرامية وتاريخ الأديان في إسبانيا وحصل على الدكتوراه سنة 1991 شغل منصب رئيس شعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب بتطوان واُعتمد خبيرا في اكاديمية المملكة المغربية في الدراسات الموريسكية وهو رئيس وحدة البحث في تاريخ الأديان والحضارات الشرقية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد المالك السعدي ــ تطوان ــ المغرب. نشر أبحاثا بالعربية والإسبانية والفرنسية وترجم عن العبرانية والإسبانية القديمة والبرتغالية القديمة واللاتينية.

إنها تكتفي بتبليغ حقائق الإيمان إلى من هم من أهل الضلالة والعناد الذين أنكروا حقيقة التوحيد وجحدوا النعم، وتجتهد من أجل تمتين صلة أهل الإيمان بربهم ؛ وهم الذين اهتدوا إلى الحقائق النورانية القرآنية وترقوا إلى أوج الخلافة. وهي كذلك تناظر أولئك الباحثين عن الحقيقة الذين سينقلبون إلى التوحيد وسيشايعون أهل الإيمان في حربهم ضد أهل الإلحاد.

في هذا الإطار العام، نظر الأستاذ النُوْرْسي إلى "الإنسان"' لقد توجه إليه باعتباره ذاتا عاقلة للعالم، عاقلة للكون. والأبعاد الحقيقية لماهية هذا "الإنسان" ليست تنجلي إلا "الإيمان" .

إن الإيمان وحده الكفيل بجعل الإنسان الذي سُويَ خلقا بعد خلق يتمثل مهمة الاستخلاف في الأرض ويرتقي في سُلم الكمالات ليُصبح مؤهلا للتدبر والتفكر في آلاء الله العلي القدير رب السماوات والأرض وما بينهما رب العرش العظيم. وبتلك الكمالات فقط تنكشف لهذا الإنسان أسرار الكون، فيصير هذا الأخير كما قال الأستاذ' كتابا سطرت فيه آلاف آلاف الحقائق تجتمع كلها وتترابط من أجل هدف سام هو معرفة الخالق وتمثل مهمة الأمانة.

يرى الأستاذ أن سمو الإنسان مشروط بنور الإيمان فهو" إما ينمو بنور الإيمان إلى أعلى عليين فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقا بالجنة" أو " يتردى بظلمة الكفر فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم، ذلك لأن الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل، ويربطه بوثاق شديد" إن الإيمان حسب الأستاذ، انتساب. ولهذا يكتسب الإنسان بالإيمان قيمة سامية من حيث تجلي الصنعة الإلهية فيه، وظهور آيات نقوش الأسماء الربانية على صفحة وجوده، بينما يقطع الكفر والجحود ذلك الانتساب

و إذا كان الإيمان هو الحاسم في ترقي الإنسان أو انحطاطه وبالتالي اندارجه ضمن فصيل أهل الإيمان أو سقوطه إلى درك أهل الإلحاد والضلالة والعناد، وبعبارة أخرى، إذا كان الإيمان هو الحاسم في عملية سمو الإنسان وتخلصه من الحيوانية أو سقوطه إلى حقير المادة، فإن حقائق هذا الإيمان مترابطة متلازمة وينبغي تمثلها في صيغتها الشمولية المتراصة. فهذه الذات العاقلة للكون هي جزء من هذا الكون وهي خاضعة إلى الزوال والفناء، إنها خاضعة لقانون إلهي ومدعوة إلى آداء وظيفتها ضمن فسيفساء هذا الكون، كما أنها آيلة إلى محكمة عليا في عالم آخر لا يتبدل ولا يتغير.[1]

وبقدر ما تسمو هذه الذات العاقلة تترقى، وتصبح جديرة بأداء أمانة الاستخلاف. وذلك السمو متوقف على درجة التدبر والتفكر عند هذه الذات.

إن الإنسان رغم ما قد يبدو عليه من صور السمو محتاج إلى أكثر أنواع الكائنات وهو ذو علاقة صميمة معها، امتدت رغباته وآماله إلى حيث الأبد [2]. وهذا الإنسان قد يبدو أحيانا "أقل شأنا من النحلة والعصفور وأضعف من الذبابة والعنكبوت" [3]كما أن باستطاعته "أن يتجاوز الجبال والأرض والسماوات فيحمل ماأشفقن منه" ويكون ظلوما جهولا . [4]

من هذه المنطلقات النورية رأيت أن أقف على "الإنسان" في التوراة والإنجيل. وأشير إلى أن الأستاذ سعيد النُورْسي رحمه الله كان يحرص في الرسائل على تأكيد أمر مفاده أن حقائق الكتب السماوية تتكامل في القرآن الكريم ، وأن كل الدلائل والحجج المرتبطة بتلازم وترابط المسائل المتعلقة بحقيقة الإيمان تثبت صدق القرآن بل وبعبارة الأستاذ: تثبت صدق جميع الكتب السماوية. وعلى ما اعترى هذه الكتب (أعني العهدين القديم والجديد) من تحريف وتبديل بقي فيها من الأمور ما يتكامل مع حقائق القرآن الكريم.

وأول ما يطالعنا في التوراة من النصوص المتعلقة بالإنسان هذا النص:

" قال الرب نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الرب الإنسان على صورته. على صورة الرب خلقه.ذكرا وأنثى خلقهم وباركهم، وقال أثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض..". [5]

وقد أثارت هذه الفقرة كثيرا من النقاش عند مفسري التوراة ، وهي بقدر ما تؤكد ميزة سمو الإنسان وتحقق الكمالات له ليتحمل الأمانة ويكون خليفة للرب على الأرض، بقدر ما تسببت في تشويش عقدي طال الفكر الديني اليهودي.فقد فُهم من جملة "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا" جانبها المحسوس وسقط من فهموا هذا الفهم في التجسيم إلى درجة أن موسى بن ميمون وهو من شراح التوراة يقول مستنكرا :

" قد ظن الناس أن الصورة في اللسان العبراني يدل على شكل الشيء وتخطيطه، فأدى ذلك إلى التجسيم المحض لقوله : لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا، وظنوا أن الله على صورة إنسان أعني شكله و تخطيطه فلزمهم التجسيم المحض فاعتقدوه ورأوا أنهم إن فارقوا هذا الاعتقاد كذبوا النص بل يعدمون الإله.". [6]

يرى ابن ميمون أن المراد بالجملة المذكورة أعلاه الصورة النوعية الذي هو الإدراك العقلي لا الشكل والتخطيط.

وحسب نصوص التوراة، فإن الإنسان على الرغم من كونه مُنح السمو، ومُنح قدرة التسلط على مخلوقات الأرض تبقى قدراته متفاوتة ويبقى متذبذبا بين الألوهية والناسوتية .فهو وإن تسلط على مخلوقات أخرى يبقى خاضعا للحكم الذي لحق به بعد مخالفة الأوامر الإلهية. لقد أصبح بفعل تلك المخالفة كائنا أرضيا ناقصا ينساق إلى طبيعته الإنسانية :"لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة" .[7]

وهذا الكائن شرير وإن كان ساميا بين الخلائق، فهو يخلق أفكاره التي تنشأ في قلبه، وكل شروره نابعة من الجهل: "قال الرب لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان، لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضا أميت كل حي كما فعلت...".[8]

يقول ابن ميمون: "هذه الشرور العظيمة الواقعة بين أشخاص الإنسان من بعضهم لبعض بحسب الأغراض والشهوات والآراء والاعتقادات كلها أيضا تابعة لعدم، لأنها كلها لازمة عن الجهل، أعني عن عدم العلم، كما أن الأعمى لفقده البصر لا يزال عاثرا مجروحا جارحا لغيره أيضا، لكونه ليس عنده من يهديه الطريق، كذلك فرق الناس، كل شخص على قدر جهله يفعل بنفسه وبغيره شرورا عظيمة في حق أشخاص النوع...[9]

وشكلت النصوص الواردة في التوراة في موضوع "الإنسان" مادة خصبة لأولئك الذين خاضوا في مسألة الفرق بين الإنسان والحيوان. لقد امتاز هذا المخلوق السامي على جميع المخلوقات بما منحه الله من العقل وملكة التفكير. وصار بذلك كائنا يسمو ويترقى إلى درجة الاستخلاف، فيفكر ويفهم ويميز بين الحق والباطل ويمارس العدل ويدرك قيمة الزمن. كما يمكن أن يسقط إلى أسفل درك الحيوانية فيظلم ويستحوذ ويكفر بأنعم الله.

و الإنسان من المنظور التوراتي آخر ما خلق الرب، فهو يعتبر تتويجا لعملية الخلق، وهو بذلك يعتبر هدفا أساسيا من الخلق، كتبت له السيادة على المخلوقات. وعلى الرغم من هذه السيادة هو كائن ناقص ، وجوده مشروط بوجود تلك المخلوقات حتى ما كان منها ضعيفا. إنه يحتاج إلى الغذاء... وأيامه معدودة، وليس أمامه إلا الاختيار بين طريقين:

- طريق الطاعة والخضوع للرب لينتهي إلى السعادة الأبدية.
- وطريق العصيان الذي مآله الخسارة والندم.

و الكل حسب التوراة باحث عن السعادة والخلود، غير أن سالكا فقط من بين هؤلاء السالكين ومن كان من شاكلته، يصل إلى المراد الذي من أجله أنزل الله كتبه وأرسل رسله وأعد جنته ووعد بجزائه.

في هذا المعنى قال ابن ميمون:

إن السلطان في قصره، وأهل طاعته كلهم، منهم قوم في المدينة، ومنهم قوم خارج المدينة. وهؤلاء الذين هم في المدينة: منهم من قد استدبر دار السلطان ووجهه متجه في طريق أخرى، ومنهم من هو قاصد دار السلطان ومتجه إليه وطالب دخول داره والمثول عنده، لكنه إلى الآن ما رأى قط سور الدار، ومن القاصدين من وصل إلى الدار وهو يدور حولها يطلب بابها، ومنهم من دخل من الباب، وهو ماش في دهاليز، ومنهم من انتهى إلى أن دخل قاعة الدار، وحصل مع الملك في موضع واحد، وهو دار السلطان. وليس بحصوله في داخل الدار يرى السلطان، أو يكلمه بل بعد حصوله في داخل الدار لا بد له من سعي آخر يسعاه، وحينئذ يحضر بين يدي السلطان ويراه على بُعد، أو عن قرب أو يسمع كلام السلطان، ويكلمه. [10]

إن الموقع من دار السلطان يتحدد باعتبار تحصيل العقيدة. فالذين هم خارج الدار لا عقيدة ولا مذهب لهم. وهم ممن غلبت عليهم الصيغة الحيوانية. وهم وإن كانوا من مرتبة الموجودات يبقون دون مرتبة الإنسان. وهناك من فصائل الناس من عُد من أهل الرأي والنظر، إلا أنه حصلت له آراء غير صحيحة إما من غلط وقع فيه أو غلط نشأ عن تقليده لغيره ، وهذا من أخطر الفصائل لأنه قد يُضل غيره.

وهناك فصائل أخرى أكثر إنسانية مثل أهل الشريعة وهؤلاء أنواع، منهم الواصل ومنهم التائه بين الدهاليز، ومنهم من أعمل فكره بعد كماله في الإلهيات فأقبل على الله عز وجل ونأى على من سواه فاستحق أن يكون في حضرة الخالق وهذه درجة الأنبياء.

كل هذه المعاني التوراتية نجد لها ما يقابلها في رسائل النور. وقد أشرنا عليها في بداية هذا البحث.

إذا انتقلنا إلى الإنجيل وجدنا أن كل هذه المعاني سوف تُزكى خاصة وأن سياق النبوة واحد.

قال السيد المسيح عليه السلام: " لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس بل لأتممه. الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة من الشريعة حتى يتم كل شيء، فمن خالف وصية من أصغر هذه الوصايا وعلم الناس أن يعملوا مثله، عُد صغيرا في ملكوت السماوات" . [11]

إن الإنسان حسب ما تردد في الأناجيل مخير بين أمرين اثنين: الاندراج في ملكوت الرب باتباع الشريعة أو الطرد من ذلك الملكوت بالابتعاد عنها. إن الإنسان مدعو في الإنجيل بأن" لا يجمع له كنوزا على الأرض حيث يُفسد السوس والصدأ كل شيء

وينقُب اللصوص ويسرقون" [12] إنه مدعو إلى أن يجمع كنوزا في السماء حيث العالم الذي لا يزهو ولا يتغير. والإنسان مدعو في الإنجيل بأن يسلك الباب الضيق، لأن الطرق المؤدية إلى الهلاك سهلة وواسعة. [13]

وإذا كانت أسفار موسى وكتابات الرسل والكتابات لم تول كبير عناية للعالم الآخر فإن الأناجيل وباقي مكتوبات العهد الجديد ركزت على ذلك العالم. إن هذه الدنيا الفانية ليست إلا محطة للتزود، والسعادة الحقيقية تتحقق بالمرتبة التي سيجنيها الفرد في عالم ملكوت السماء.

هذه بعض ما اجتمع لدي من مسائل متعلقة بالإنسان في التوراة والإنجيل من منظور نوري، وقد عمدت في تقديمها إلى سلوك باب الاختصار، ولم أتطرق فيها إلى ما جاء في مسألة الخطيئة و غيرها من الأمور التي فيها خلاف بين الإسلام والمسيحية واليهودية.إن ما ذكرته يتكامل. إن هذا الإنسان وُجد لغاية ، استخلف في الأرض وسيُحن ويُمتحن في محكمة عليا فيجازى إن كان محسنا ويعاقب إن كان مذنبا ، إن لكل أمر معنى وموقعا في هذا الملكوت. لقد أحكم الله عز وجل صنع هذا الكون فكل شيء فيه بقدر، وكل شيء فيه متلازم ومترابط ومتراص. وليس الإنسان في هذا الكون إلا كأدق جزء ذرة في بحر لجي وحده الرب سبحانه يعلم شُطآنه ومكوناته.

وتبقى الإنسانية "قصيدة حكيمة منظومة تعلن إعلانا لطيفا جميع تجليات الأسماء الإلهية القدسية، وهي معجزةُ قُدرة باهرة جامعة كالنواة لأجهزة شجرة دائمة باقية". [14]

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الهوامش

1 انظر ما جاء في رسالة الحشر– الكلمة العاشرة.
2 انظر الكلمة الثالثة والعشرون – الكلمات ص:359
3 نفسه ص:360
4 نفسه ص:360.
5 سفر التكوين الإصحاح الأول, 26–30.
6 دلالة الحائرين , ص:22–23
7 سفر التكوين, الإصحاح الثالث,6.
8 سفر التكوين الإصحاح الثامن.21.
9 دلالة الحائرين, ص:495.
10 انظر دلالة الحائرين ص: 714–715–716.
11 إنجيل متى الإصحاح الخامس,17–19.
12 إنجيل متى الإصحاح السادس,19
13 إنجيل لوقا الإصحاح الثالث عشر’24 وإنجيل متى الإصحاح السابع,13.
14 المثنوي العربي, ص:361